

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آل وصحبه وسلم .
ويعدد،،

مارس الغرب على الأمة الإسلامية صنوفاً من الإذلال والقهر فى عصرنا، ويعود ذلك لأسباب كثيرة أبرزها تفرق المسلمين وعدم تمسكهم بدينهم وعقيدتهم، ولا يمكن رد عدوان الغرب وهجمته على الإسلام إلا من خلال صحوه إسلامية، يربط فيها المسلمون حاضرهم بتراثهم بما يحمله من قيم أصيلة، تساعد على الصمود والمقاومة .

لقد كان المسلمون أصحاب حضارة كبيرة ومجد عريق، تهابهم أعتى الإمبراطوريات فى الشرق والغرب، ثم عملت فيهم الفرقة والعصبية والمذهبية فضعفوا وانهارت قوتهم وتمكن منهم أعداؤهم .

لقد كانت تلك الحقيقة نصب عيني وملء قلبي وأنا أختار موضوعاً أقوم بدراسته، وأدى بى التفكير فى أسباب هذا الضعف الذى حل بالمسلمين إلى البحث عن موضوع قد يساعد فى ذلك .

فلا بد للمسلمين من المقاومة والصمود وبذل الجهد لرفع الظلم عن كاهلهم، ولما وجبت أن كل حضارة هى مجموع النظم والقيم والمعتقدات والسلوكيات، التى تحرك جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وباعتى كل حضارة عقيدة راسخة، ذات أصول قوية، تكفل لها النهوض والازدهار، والصمود والبقاء فى مواجهة الحضارات الأخرى، والعقيدة الإسلامية كذلك، اتجه تفكيرى إلى العقيدة، فهى أساس وحدة المسلمين وسعادتهم، فقيمها الأصيلة التى تدعوى إلى الحق والعدل والحرية والمساواة كفيلة بنهضة الأمة ودعوتها للإخاء والتآلف والوحدة .

لقد كان المسلمون قبل ظهور الفرق وحدة واحدة لا يعرفون المذهبية والعصبية، وهذه المذاهب هى التى فرقت المسلمين، ولذلك فكرت لو بحثت حال المسلمين قبل أن يكونوا فرقاً مختلفة، فوقع اختياري على الجانب للنقدى فى الفكر الإسلامى من خلال المذهب الزيدى، وهو مذهب معتدل فى عمومته، يدعو إلى التآلف والوحدة والاجتهاد، وللزيدية موقف نقدى

بارز وواضح المعالم تجاه الفرق والمذاهب الكلامية فى اتجاهاتها العامة، فقد تتبهنوا لأثر العقائد الوافدة على العقائد الإسلامية منذ وقت مبكر، وأثر هذه العقائد على حضارة المسلمين وثقافتهم، وفتاولوا بالنقد الموضوعى الفلسفات القديمة وأسباب حربها على الإسلام وعقيدته وحضارته وقد هدفت لمحوها، ولذلك اخترت عنوان رسالتى للدكتوراه على النحو التالى: نقد الزيدية للمذاهب الكلامية".

ويتسم نقمه بالوضوح والمنهجية والامتنقالية وتنزهه على التجريح والتسفيه والأحكام العامة، فنجح إلى الاعتدال والاقتصاد فى الأحكام، ويجمع بين علماء الزيدية البدعوة إلى الاجتهاد والتقريب بين المذاهب الإسلامية والاهتمام بالتطبيق والعمل أكثر من النظر والجدل، والتأكيد على المنهج فى أصوله ومبادئه العامة، كما أنهم قد انفتحو على المذاهب الأخرى، مما أدى إلى تنوع مناهج الاجتهاد داخل المذهب، ويبدو ذلك واضحاً من الاتجاهات المختلفة التى ظهرت فى تاريخهم، فقد كان عمدة نقدهم فى العقيدة رفض التشبيه والتجسيم فى التوحيد والصفات، ورفض الجبر فى العدل، والتأكيد على التنزيه والحرية الإنسانية فى ضوء المنهج الإسلامى.

ولذلك ظهر عند الزيدية من ناصر الفكر المعتزلى، وتمثل ذلك فى يحيى بن الحسين ت ٢٩٨هـ ووصل أقصى درجاته عند يحيى بن حمزة العلوى ت ٧٤٩هـ، وظهر كذلك من حارب المعتزلة وهاجمهم ودعا للمحافظة على أصول المذهب ونسقه الفكرى من المؤثرات المختلفة كحميدان بن حميدان ت ٦٥٦هـ.

وبلغت أبرز سمات التوفيق بين المذاهب الإسلامية والانفتاح الزيدى على غيرهم فى الاتجاه السلفى عند ابن الوزير والشوكانى والصنعائى، الذين اتجهوا إلى إحياء علوم السلف والعناية بالحديث ونادوا بالعودة للأصول ووحدة الأمة، وكانت لهم نظرات صائبة فى نقد وتقييم مناهج علم الكلام وموضوعاته.

وقد صادفت أثناء العمل فى هذه الدراسة بعض الصعوبات، من أهمها أن أغلب تراث الزيدية ما زال مخطوطاً، ولم ينشر، والأعمال العلمية التى اتجهت نحو الزيدية بالدرس قليلة جداً، ولا تساعد على معرفة أصول وأسس الفكر النقدى وأهدافه، لتناولها الأشخاص موضوعاً للدراسة.

ولذلك اتجه تفكيرى إلى نسخ أبرز هذه الأعمال، لتكون تحت يدى أو تصويرها إن أمكن ذلك، فاجتمع عندى قدر كبير من المخطوطات عن المذهب الزيدى بفضل الله، وقد وفقنى الله إلى تحقيق بعضها وطباعته، وهو من بركات هذه الدراسة، وقد ساعد ذلك كثيراً فى وضوح الرؤية النقدية من جميع جوانبها.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى ستة أبواب جاءت على النحو التالى :

الباب الأول وجاء فى الألوهية والتوحيد، وتضمن أربعة فصول، تناول الأول نقدهم للفلسفة الإلحادية ومناهجها وهى الأساس الذى أثر فى مناهج علم الكلام بعد عهد السلف، والثانى فى نقد الزيدية للنصرى والثنوية وتطرفت إلى تقديم لأصحاب الطول والاتحاد، أما الفصل الثالث فكان فى وجود العالم ونقد الزيدية للمعتزلة وغيرهم فى ماهية العالم ووجود المادة وعرج على نقد المفاهيم والمصطلحات مثل الجوهر الفرد وغيره، بالإضافة إلى الأحكام المتعلقة بهذا الباب.

أما الباب الثانى فجاء فى الصفات الذاتية، وتضمن فصلين الأول منهما نقد الزيدية للمعتزلة والكلابية فى الصفات، ونقد المنهج المعتزلى والمفاهيم التى انتابت التصور الإسلامى فى الصفات، أما الثانى فقد تناولت فيه صفات العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والإدراك، وموقف الزيدية من المتكلمين فيها، وجاءت خاتمته فى الأحكام التى تعلقت بالصفات.

وجاء الباب الثالث، ليعالج نقد الزيدية للمذاهب الكلامية فى الصفات الخبرية، من خلال ثلاثة فصول كان الأول منها فى عرض منهج الزيدية فى الصفات الخبرية، والثانى فى بيان استحالة الجسمية والعرضية على الله، من خلال تقديم للمشبهة والمجسمة والاتجاهات المادية فى تصوراتها الشاذة والمشوهة للتزيه فى الإسلام، أما الفصل الثالث فكان فى تأويل الصفات الخبرية، كضرورة من ضرورات التصور الإسلامى، والبحث عن أفضل السبل والطرق للفهم والتأويل، ومحاولة انتقاء منهج يجمع بين عقلانية النظر وأصالته فى الوقت ذاته، وقد رضى كثير من علماء الزيدية عن التفسير البيانى والمدرسة البيانية فى التأويل.

وعالج الباب الرابع قضيتى الرؤية والكلام فى فصلين مستقلين، نقد فيهما الزيدية المذاهب الكلامية فى الرؤية الحسية، وتوسطوا فقبلوا الرؤية المعنوية أو القلبية فى الدنيا والآخرة، وتعرضوا لآراء الأشاعرة والحشوية فى الرؤية، من حيث المنهج والأدلة، وفعّلوا الشئ ذاته فى الكلام، فأولوا صفة للكلام ونقدوا الأشعرية فى نظرية الكلام النفسى وموقفها تفسيراً غير مقبول عارياً عن الموضوعية.

أما قضايا الحدل فقد تناولتها فى الباب الخامس، وتضمن ثلاثة فصول أولها فى خلق أفعال العباد والفعل الإلهى، ونقدوا فيه للمجبرة فى زعمهم خلق الله لأفعال العباد والأشاعرة فى نظرية الكسب، وتخلل ذلك التعرض للمفاهيم والمصطلحات، وبيان مدى تأثيرها فى المذاهب والاتجاهات الاعتقادية، كذلك تعرضوا للخلط فى استخدام المنهج والاستدلال بالنصوص، رغم وضوح التصور الإسلامى فى الموضوع، ونقدوا المجبرة فى الإلجاء وبيّنوا تعارضه مع حقائق وأصالة المنهج الإسلامى، وانتهى بالحديث عن الفرق بين الفعل الإلهى

والإنسانى وطبيعة كل منهما، أما الفصل الثانى فكان فى الإرادة والتوليد، وتناول الفرق بين الإرادة الإلهية والإنسانية وطبيعة وعمل كل منهما ونقدم للأشاعرة والمجبرة والمعتزلة فى الإرادة، ثم أعقب ذلك الحديث عن الاستطاعة ونقد تصور المجبرة والأشعرية أنها مصاحبة للفعل ولا تأثير لها فيه، ونفى تصور فعل بين فاعلين، وانتهى بالتعرض لقضية الحكمة والعلية وقد تناول موقف الفلاسفة والأشعرية من الحكمة الإلهية ونقد الزيدية لهم، وبيان علة خلق الله للأشياء وكون أفعاله معللة، وما لم نتبين له علة أو حكمة هو مما خفى علينا، ولا يعنى عدم إدراكنا للحكمة فى خلقه نفيها أو يجيز لنا الاجترأ أو الافتراء على قسسية الذات الإلهية بنفى الحكمة عنه، كما تناول تحكيمات المعتزلة والأشاعرة فى التحسين والتقبيح، الأولين فى المنهج والآخرين فى الموضوع، ونقد موقف متأخرى الأشاعرة من العلية، ونقد المطرفية فى التوليد، وهى من القضايا التى توسع علماء الزيدية فى نقدها لموقفهم المتشدد من المطرفية، وكان إزاماً علينا التعرض لنشأة المطرفية وبيان مذهبهم فى الإحالة والاستحالة، حتى يتيسر لنا تفسير الموقف الزيدى منهم، وتبرير تصرفات أئمتهم تجاه هذه الفرقة، وانتهينا ببيان مغزى إنكار المجبرة للتحسين والتقبيح العقلين جملة أو تفصيلاً.

وأما الفصل الثالث من باب العدل فقد جاء فى القدرة والتكليف، وتناول القدرة الإنسانية ونقد الأشاعرة والمجبرة فى موقفهم من القدرة، وتعرض للتطور الذى حدث للمفهوم الأشعرى فى القدرة، ثم تنى باللفظ والصلاح والأصلح، وثلت بالتكليف ثم العوض والوعود والوعيد والشفاعة، وجاءت النقطة السادسة من هذا الفصل لتعالج مسألة الرسالة والمعجزات وموقف النصارى واليهود من الدعوة والرسالة المحمدية.

أما الباب السادس فتعرض لقضية نقد الزيدية للمذاهب الكلامية فى الإمامة، وتضمن أربعة فصول، الأول منها فى مبحثين الأول منهما تعرض لموقفهم النقدي من الفرق فى نظرية الإمامة، وقد ركزوا على المعتزلة والشيعة، وكان للأولين نصيب كبير من النقد فتناولوا أئمتهم من وجوه عديدة، والمبحث الثانى جاء فى بيان موقف الزيدية من التفضيل فى الإمامة، ونقدم أيضاً للمعتزلة وغيرهم، وجاء الفصل الثانى فى نقد الزيدية للشيعة والباطنية فى الإمامة فتناول منهجهم فى الإمامة بالنقد وتقنيدهم وأئمتهم وحججهم فى وجوب العصمة، والمهنية والنور.

أما الفصل الثالث فجاء فى رد الزيدية على مطاعن الشيعة فى الراشدين وبيان كذبهم وفرائهم عليهم وعلى الله ورسوله، وجاء الفصل الرابع ليكون خاتمة الرسالة فبين موقف الزيدية من الصحابة والثورة.

وقد اعتمدت المنهج الوصفي وللنقدى المقارن فى دراستى، لما فى ذلك من فائدة للبحث، يظهر بها أصول الأفكار التى يتناولها الزيدية بالنقد، وكيف تعرضوا لها بالنقد، ومدى موضوعية النظر عندهم، وتمكنهم من عرض آراء الخصوم والرد عليها .
وبعد، كانت هذه الرسالة محاولة - وإن كانت متواضعة - عالجت فيها موقف الزيدية ووجهة نظرهم كفرقة من فرق المسلمين، من المذاهب الإسلامية الأخرى من الناحية النقدية، وكان رائدى فى هذا العمل هو الاعتقاد بأن الحوار والجدل المثمر بالحسنى والموعظة الحسنة، كان أبرز الحلول وللصور المشرفة لفكرنا الإسلامى، فى تناول العقائد، ويوم تأخر الحوار والاجتهاد والنظر، تخلفت الأمة وسطا عليها التقليد والتعصب المذهبى، ونالها عدوها وساءها فى أبناءها ونفسها، فيوم سكت الحوار والجدل بدأ الصراع والتناحر، وصارت الجزئيات كليات والهوامش أساسات، وتحدت الجماعات بتعدد الآراء، وتفتت الأمة إلى أشلاء، ولا حل يعيد لها هويتها ومكانتها سوى العقلانية والنظر فى ضوء أصول الدين والمزيد من التقويم والنقد، وإعادة التقويم والنقد، ونفى كل ما تعلق بالمنهج من زوائد وشوائب، أو إضافة ما فاته من أساسيات وركائز .

ولعلى وفتت لما أردت من هذه الرسالة، فبفضله بدأت وبقوته عملت، وكان رائدى عقيدة صحيحة ونفساً نذرتها لربى، ولعل ما يأتى مكفراً لما مضى من المعاصى والذنوب، ولا يفوتى بذل الشكر لأهله وذويه، فمن ساعد ساعد الله، ومن بذل بذل له، فباسمه أخذت وتركت، وبقوته استعنت وتوكلت، فالشكر كل الشكر لمشرفى المبارك الدكتور/ عبدالفتاح أحمد الفاوى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، والذى أخرجنى تواضعه وأدبه، ونقاء قلبه ونكاه عقله، وأبهرنى علمه وفضله، فإله يجزيه على ما بذل وأعطى من وقت وجهد وأشكر أستاذى الدكتور عبدالحميد عبدالمنعم مذكور على إشرافه وتعهده لى طيلة فترة غياب الدكتور/ عبدالفتاح الفاوى فى الخارج، فقد أفدت منه كثيراً علماً وخلقاً فجزاه الله خيراً، وشكرى لجميع من ساعد وأزر، حتى خرجت الرسالة بحالتها التى بين أيديكم .

وأخيراً لا أزكى عملى، ولعل من يأتى بعدى يكون خيراً منى، وعذرى أنى ما انخرت وسعاً ولا جهداً فيها، فإن كنت قد وفتت فمن الله وإليه المرجعى، وإن كانت الأخرى فمن نفسى، ومن الله العفو والغفران .